

الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم

الدكتور غزالدين عمر موسى

أستاذ التاريخ الإسلامي
جامعة الملك سعود - الرياض



تمهيد

تمثل هذه الدراسة أولى ثلاث دراسات أعدتها في الفترة من ديسمبر 1967 إلى أكتوبر 1975. أما الدراستان الأخريتان فأولاهما: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي. وثانيتهما: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي. وأصل هذه الدراسة التي هي بين يدي القارئ الآن هي رسالة ماجستير قدمت إلى دائرة التاريخ في الجامعة الأميركية في بيروت في فبراير 1969. وقد أشرف عليها أستاذي الكريم الأستاذ نقولا زيادة. وقد فحصها، بالإضافة إليه، كل من أستاذي الدكتورين قسطنطين زريق وإحسان عباس. وكان لملاحظاتهم جميعاً فوائد عظيمة في إعداد الأصل للنشر بالصورة التي أمام القارئ الكريم.

ولكنني حرصت وأنا أعد المخطوط إلى النشر على ألا أحدث تغييراً جذرياً في المرتكزات الفكرية التي قام عليها البحث، حتى تمثل الدراسة بصورتها الأولى مرحلة من مراحل نموي الفكري في مدارج البحث التاريخي، غير عدلت في منهج البحث من حيث تقميش المادة وفحصها والتثبت من الحقائق وطريقة عرضها وفقاً للنقد الذي وجه لي من جهة، وحال القارئ الذي أود مخاطبته من جهة أخرى، دون أن يكون ذلك على حساب المنهج العلمي في البحث التاريخي. ولعل التعديل الأساسي الذي أحدثته على أصل الرسالة هو تضمين الفصل الأول عن المصادر والدراسات في مقدمة هذا الكتاب الذي ينشر وإفراد خاتمة للبحث بعد أن كان الأصل خلواً منها إذ كنت قد جعلت لكل فصل خاتمة.

المقدمة

الموضوع وأهميته:

كان المغاربة في العصر الوسيط يعيرون على المشاركة جهلهم بأخبار المغرب. ولئن وجد المشاركة عذراً في بعد المسافات وقلة الأخبار، فإنهم اليوم لا يجدون عذراً بعد أن ترابطت أطراف الأرض وزالت المسافات أو كادت بفضل وسائل الاتصال الحديثة وتوفر أدوات البحث. وتاريخ المغرب بحاجة لجهود كثير من الدارسين لأن فترات كثيرة ومسائل متعددة من تاريخه لم تدرس دراسة علمية على الرغم من جهود بعض المغاربة المحدثين، وقلة من أبناء المشرق الذين اهتموا بالدراسات المغربية والأندلسية قبل وقت قصير. والتاريخ العربي في حاجة ملحة لمثل هذه الدراسات لأن البحث التاريخي في هذا القرن اتجه إلى معرفة الماضي من خلال وحداته الحضارية. ولن يتيسر لنا دراسة شاملة ومتعمقة للحضارة العربية الإسلامية إلا بعد بحث جوانبها المتعددة، ومظاهرها المختلفة، واستجلاء غوامض التاريخ المغربي جانب من تلك الجوانب، وتوضيح النظم الإسلامية عامة والمغربية منها بصفة خاصة. ولهذا اخترت دراسة تنظيمات الموحدين ونظمهم في المغرب موضوعاً لبحثي هذا.

وفضلاً عن هذا فإن دراسة الموضوع تسعف في تفهم النظم التي سادت في المغرب الكبير لخمسة قرون تلت عهد الموحدين؛ ذلك لأن النظم الإدارية الموحدية ظل العمل بها في المغرب خلال هذه الفترة لا سيما وأن الدول التي جاءت بعد الموحدين استمرت في تقليد رسومهم، مثل الحفصية في تونس والمرينية في المغرب الأقصى ودولة بني عبد الواد في تلمسان والنصرية في

ويجدر بي أن أنوه بفضل أستاذي نقولا زيادة عليّ في توجيهي نحو الدراسات المغربية بعد أن كانت الدراسات المشرقية مستحوذة على اهتمامي. وما أن بدأت في هذا الاتجاه الجديد حتى أخذ الدكتور إحسان عباس برعاية جهدي، وتوجيهي في دروب تاريخ المغرب الإسلامي ومسالكه، فكان لي عوناً على مشقاته، ونبراساً في ظلماته، وترباساً أتوكأ عليه كلما كلّ سعياً، وكانت مكتبته الخاصة زاد المسافر في دهاليز ذلك التاريخ ودروبه الطويلة، فإن أنتجت نفحاً طيباً من ذلك الغصن الرطيب فذلك بغية ملتصقي وتكملة مسعائي، فله خالص شكري عرفاناً بجماله التي لا تحصى.

وأود أن أشكر الأخ الأستاذ الدكتور يوسف فضل حسن على تفضله بقراءة المخطوط في أصله الأول حينما قدم إلى بيروت زائراً؛ فقد زودني بملاحظات قيمة أفادت في إعادة ترتيب بعض أجزاء الدراسة. وأخص بالشكر الشيخين إبراهيم الكتاني ومحمد المنوني على ما زوداني به من معلومات أثرت البحث وأكدت نتائجه. وكذلك أتوجه بشكري الجزيل لموظفي مكتبة الجامعة الأميركية وأخص بالشكر الدكتور يوسف خوري والأستاذ حداد والسيدة زخريا على المساعدات التي لا حصر لها في تزويدي بكل ما احتجته من مصادر ومراجع ودراسات مخطوطة ومنشورة.

وأخيراً أوجه شكري لحكومة جمهورية السودان على تفضلها بمنحي بعثة دراسية إلى الجامعة الأمريكية في بيروت أنجزت خلالها هذا البحث، وأخص بالشكر السادة عبد الحليم علي طه وعبد الرحمن الشيخ ومحمد إبراهيم النور على ما بذلوه من مساعدة في هذا الصدد، فلهم جميعاً جزيل شكري وخالص ودي. ولدار الشروق أعظم منّة على نشرها للدراستين الأخريين، وكان من المفترض أن تنشر هذه الدراسة منذ 1979 ولكن لم تفعل بسبب الحرب حتى أصل المخطوط لا ندري له مكاناً. والشكر أجزله لدار الغرب الإسلامي لتفضلها بنشر الكتاب في هذا العام 1990 بعد أن طال انتظار الدار الأولى. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

عز الدين عمر موسى

غرناطة. ويبدو أن كثيراً من نظم الموحدين ظل العمل بها حتى بعد أن انقرضت هذه الدول التي أعقبت دولة الموحدين.

أضف إلى هذا أن الفترة الموحدية كانت فترة تزاوج حضاري بين المجتمعين المغربي والأندلسي. وعلى الرغم من غلبة المغرب الأقصى السياسية، في فترة الدراسة هذه، إلا أنه قد تأثر تأثيراً كبيراً بالحضارة الإسلامية الأندلسية، وما النظم إلا مظهر من مظاهر هذا التأثير الأندلسي.

ولعل خير ما يصور أهمية الموضوع الذي ندرسه أن الفترة الموحدية تنطق بتجربتين هامتين نعيش ما يشبههما في الوقت الحاضر، وهما:

أولاً: محاولة الموحدين صوغ المجتمع بفكرة واحدة وذلك عن طريق سيطرة الطلائع التي تؤمن بهذه الفكرة.

ثانياً: الفكرة القائمة على إحياء الإسلام في نفوس تلك الطلائع وتشديد مجتمع الإسلام ودولته بطريقة تحتذي خطى فترة الرسالة حذو القدة بالقدة.

كلتا القضيتين من القضايا التي يحسن التعرف على نتائجها لا سيما وأن أمتنا تمر بتجربة أو تجارب مشابهة، منذ فجر الاستقلال السياسي، في أغلب أقطار الأمة العربية الإسلامية، مع اختلاف في الفكرة في هذا القطر أو ذاك. ولكن المنهج واحد والأسلوب واحد والطريقة واحدة مع اختلاف الغطاء الفكري والمركز العقائدي والتبرير السياسي.

ونسبة لأهمية الموضوع كان لا بد من انتقاء المادة من مصادرها الأولية بطريقة نقدية، وتكوين صورة عامة عن التطورات السياسية في الدولة الموحدية، ومقابلة هذه التطورات مع التنظيمات والنظم وربطها بالتطورات السياسية وتقلباتها. فجاءت الدراسة في سبعة فصول سوى هذه المقدمة والخاتمة. وعالجت تلك المقدمة مصادر الموضوع والدراسات عنه مع تبيان قيمة كل منها بالنسبة لموضوع البحث.

وكان مبحث الفصل الأول عن التطور السياسي للدولة الموحدية بطريقة

مجملة موضحة للأطوار الأساسية الثلاثة التي مرت بها الدولة: دور التأسيس وعصر الازدهار ثم فترة الانحلال والسقوط مع توضيح للخصائص الأساسية وللمسمات البارزة لكل طور من تلك الأطوار.

وأعقب ذلك دراسة التنظيمات الحزبية للموحدين في الفصل الثاني؛ ذلك لأن هذه التنظيمات كانت تخرج طلائع الدعوة في دور الثورة ورجال النظم في طور الدولة. وفي هذا الفصل حاولت أن أستقصى بالدراسة مفهوم الموحدين للحزب، وتكوين التنظيمات ودورها، ونوع التربية الحزبية ووظيفتها، والتغييرات التي طرأت على كل ذلك نتيجة للتحويل من دور الثورة إلى طور الدولة.

وكان موضوع الفصل الثالث النظام السياسي الذي يرسم سياسة الدولة. فشمل البحث الخلافة ومجالسها الاستشارية. فوضحت نظرة الموحدين للخلافة وشروطها وطريقة اختيار خلفائهم ومراسيم بيعتهم، وألقابهم وشاراتهم، ودور الحاشية معهم وسلطانها عليهم. ثم بحثت في الهيئات الاستشارية وتكوينها وسلطانها وتطورها، والتغييرات التي حدثت نتيجة للتغير السياسي أطوار الدولة الثلاثة.

وبعد هذا عالجت الفصول الأربعة الباقية النظم التي تنفذ السياسة التي يقرها النظام السياسي. فالفصل الرابع عن الجهاز الإداري، سواء أكان مركزياً أو إقليمياً، شاملاً للوزارة والكتابة والبريد والإدارة العسكرية والمالية وتعيين الولاة وسلطاتهم. والفصل الخامس عن الخطط الدينية مع دراسة لمصادر الأحكام عند الموحدين والنظم التي تصدر تلك الأحكام أو تباشر تنفيذها أو تشرف عليه من قضاء وشورى وعدالة ونظر في المظالم وحسبة وصلاة وما يتعلق بها من إمامة وخطبة وأذان.

ولما كان ضبط الأمن وحفظه من أكثر الأمور التي استحوذت على اهتمام الموحدين فقد كان الفصل السادس عن النظام العسكري من جيش وأسطول مع دراسة عناصر الجيش وعدده وأقسامه ووحداته وقيادته وعدته ومسلكه في الحرب

استعداداً وسيراً ونظاماً وضبطاً وربطاً وخططاً وطريقة قتال، ثم دراسة تكوين الأسطول ودور صناعته وعدته، وتوضيح ما طرأ من تغييرات مع تقلب أحوال الموحيدين تأسيساً وازدهاراً واضمحلالاً.

وأخيراً كان لا بد في الفصل السابع من دراسة النظم المالية التي عليها اعتماد سائر النظم. فعالج هذا الفصل أوجه الدخل والصرف مع تبيان التغيير الذي طرأ مع تغير أحوال الدولة وتبدل أوضاعها.

وفي ختام البحث حاولت أن أجمل نتائج الدراسة بصورة عامة هادفاً إلى إبراز الخط العام لتطور تنظيمات الموحيدين ونظمهم، محاولاً الكشف عن العوامل التي أدت إلى التغييرات في هذه النظم وتلك التنظيمات، رابطاً تلك التغييرات بالتبدل الذي حدث في الإيمان بالفكرة والالتزام بها. مصادرہ والدراسات عنه:

تواجه الدارس للنظم في التاريخ الإسلامي صعوبات جمه لأن المصادر العربية قلما تشير إلى موضوع دراسته. ومن ثم فإن المادة التي يجمعها بعد عناء بالغ لا توازي الجهد الذي يبذله. وإن صح هذا بالنسبة للتاريخ الإسلامي عامة فإن مهمة الدارس لفترة تاريخية قصيرة ستكون أشق لا سيما إذا لم تحظ فترته بمصدر عن نظمها ولم يكن أمامه إلا كتب التاريخ العام والأدب والجغرافية. وتزداد صعوباته وتتضاعف إذا كانت المصادر التي كتبت في الفترة التي يدرسها قد فقدت. ولعله من المفيد استعراض طرفاً من التراث الذي كتب في الفترة الموحدية وفقد حتى نتبين قيمة المصادر التي وصلتنا.

لقد فقدت كتب كثيرة صنفت عن الفترة الموحدية بأقلام رجال عاصروا الدولة الموحدية وعاشوا في ظلها واشتركوا في أحداثها. ومن أمثلة ذلك المجموع في تاريخ الموحيدين لمؤلف مجهول، وقد نقل عنه البيهقي، ولهذا يبدو أنه عاش في منتصف القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي⁽¹⁾.

(1) أنظر البيهقي: كتاب أخبار المهدي وابتداء دولة الموحيدين (تحقيق ليفي بروفنسال باريس، =

وفضائل المهدي لأبي القاسم المؤمن، وكتاب لابن الراعي نجهل عنوانه ونقل عنه كثير من المتأخرين، وتاريخ الدولة الموحدية لأبي القاسم السهيلي، والاكتفاء في تاريخ الخلفاء لأبي القاسم الكردبوسي وقد صنفه في خلافة المنصور الموحيدي، وتاريخ في دولة عبد المؤمن وحزبه لأبي العباس أحمد بن محمد الفهري الإشيلي المعروف بابن سميرة (توفي في حدود القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي)⁽¹⁾، وتاريخ الموحيدين لأبي الحجاج يوسف بن عمر⁽²⁾، ونظم اللالك في فتوح الأمر العالي لأبي علي حسن بن عبد الله الأشيري⁽³⁾، وكتاب شجرة أنساب الخلفاء والأمراء وكتاب ميزان العمل لأبي علي الحسن بن عتيق بن الحسين بن رشيق⁽⁴⁾. وكتاب الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية لابن الصيرفي (ت 570 / 1174) وقد وصله إلى قريب وفاته⁽⁵⁾، وتاريخ المرابطين والموحيدين لأبي عبيد المراكشي، والمقباس في أخبار المغرب وفاس لابن الوراق⁽⁶⁾.

وقد ضاعت كتب بعض المؤرخين الذين عاصروا الموحيدين وصنفوا وهم في المشرق، مثل المغرب في أخبار محاسن أهل المغرب لأبي يحيى اليسع (ت 1179/575)⁽⁷⁾. وتاريخ المغرب ومن تولاه من أتباع ابن تومرت لأبي

= (1928 م) ص 81 وما بعدها. وسنشير إلى هذا المصدر به أخبار المهدي.

(1) أنظر عنهم ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى (الدار الأقصى، دار الكتاب 1960 م) ج 1 ص 133 — 136 وسنشير إلى هذا المرجع به دليل.

(2) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس (باعثناء كارل بوجن تورنبرغ، أو بسالة، 1843 — 1846 م) ص 137 ويسمى ابن أبي زرع أبا الحجاج يوسف «مؤرخ دولتهم». وسنشير إلى الأنيس المطرب بروض القرطاس.

(3) ابن الأبار: الحلة السيرة (تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، 1963 م) ج 2 ص 92.

(4) دليل ج 1 ص 166.

(5) ابن الزبير: القسم الأخير من صلة الصلة (تحقيق ليفي بروفنسال الرباط، 1937 م) ص 182 وسنشير إلى هذا المصدر به صلة الصلة.

(6) أنظر دليل ج 1 ص 133 — 136.

(7) دليل ج 1 ص 164.

الحسن بن يوسف القفطي (ت 1227/624)⁽¹⁾.

ولم يصلنا عدد من كتب التراجم والبرامج التي جمعت خلال الفترة الموحدية مثل كتب ابن فرتوت وبرامج ابن الملجوم وابن القطان وأبي عبد الله الأسدي وابن عيسى الصنهاجي⁽²⁾ وكثير غيرها⁽³⁾.

وكثير من المؤلفات التي وصلتنا لم تصلنا كاملة كما سيتضح من عرضنا لها في هذا الفصل. ومن هذا يتبين أن المادة التي استفدنا منها حصيلة مصادر قليلة من تراث كبير لم يسعنا الزمن على الاستفادة منه وإن جاءت مادة الكتب المفقودة في نقول الكتب المتأخرة فالمقتبس قد لا يختار كل شيء.

وبدأ تقييم مصادر البحث والدراسات عنه بكتب التاريخ بدءاً بما أوقف على الدولة الموحدية دون سواها فالكاتب عن المغرب ثم التاريخ الإسلامي عامة. ثم النظر في كتب التراجم ابتداءً بالعامّة فالبلدان فالأجناس والأنساب فالأصناف من أدباء وفقهاء وصوفية ثم كتب برامج الشيوخ. وفي كتب التاريخ والتراجم قدمت المؤلفات المغربية على الشرقية لأن المغاربة إما عاصروا الأحداث أو عاشوا في أرضها فتيسر لهم الاستفادة من مادة من سبقوهم بصورة أفضل من المشاركة.

ويلي ذلك تقييم كتب الجغرافية والرحلات فالموسوعات ثم النظم وأخيراً ألقى الضوء على الدراسات العربية ثم الأجنبية مع إلحاق ما ترجم من المؤلفات الأجنبية إلى الدراسات العربية لأن أساس التقسيم يقوم على أساس لغوي.

(1) دليل ج 1 ص 136.

(2) راجع صلة الصلة ص 149، 358، الكتاني: فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والأثبات والمسلسلات (فاس، المطبعة الجديدة، 1337 م) ج 2، ص 114.

(3) راجع عنها السنوني: العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين (تطوان، المطبعة المهدية، 1905 م) ص 68 وسنشير إلى هذه الدراسة بـ العلوم والآداب.

المصادر:

إن الكتب التي أوقفت على دولة الموحدين جاءت من ثلاثة موارد وهي: الوثائق الرسمية وتوالميف ابن تومرت ثم ما كتبه المؤرخون. وقد نشر ليفي بروفنسال سبعة وثلاثين رسالة موحدية صادرة عن الخلفاء ومن إنشاء كتابهم⁽¹⁾. وقد أخذ هذه الرسائل عن مخطوط بخزانة الأسكوريال ما عدا الرسالة العاشرة فقد أضافها عن صبح الأعشى⁽²⁾. وهذه الرسائل صادرة عن الخلفاء إلى أهل مدينة أو الوالي فيها أو الطلبة بها أو جميعهم. ويغلب عليها الطابع الإعلامي والتوجيهي التربوي. ولكنها كشفت عن كثير من نظم الموحدين السياسية والإدارية والعسكرية والمالية. وقد كانت هي العمدة في التثبت من خبر أو التحقيق في مصطلح.

وأما المورد الثاني فهو مؤلفات ابن تومرت، وقد كتب رسائل كثيرة أشهرها «أعز ما يطلب» و«القواعد» و«الإمامة» و«المرشدة». وجمع جولد تسهير كل هذه الرسائل مع آخر في كتاب «تعاليق ابن تومرت»⁽³⁾. وقد أفادت هذه الرسائل في توضيح أفكار ابن تومرت الدينية والسياسية وأثرها في توجيه تربية الموحدين توجيهاً أسلس قيادهم. كما أنها أسعفت في رسم صورة عن مصادر الأحكام عند الموحدين ونظرتهم إلى الخلافة.

والرورد الثالث والأخير هو ما كتب من تاريخ عن دولة الموحدين وحدها. ولم يصل إلينا من هذا النوع إلا كتابان وأولهما لأبي بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيذق الذي عاش في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي،

(1) نشر ليفي بروفنسال هذه الرسائل بعنوان: رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية (رباط الفتح، المطبعة الاقتصادية، 1941 م) وسنشير إليها بـ رسائل موحدية.

(2) رسائل موحدية ص ب من المقدمة.

(3) ابن تومرت: تعاليق ابن تومرت (الجزائر، 1903 م) وسنشير إلى هذا المصدر بأهم رسالة فيه وهي أعز ما يطلب. ولابن تومرت كتاب آخر هو الموطأ (نشر مطبعة فونتات الشرقية بالجزائر، 1907 م). ولم نتمكن من الاطلاع عليه.

وصحب ابن تومرت منذ بداية حركته وشارك في الأحداث. وقد نشر ليفي بروفنسال ما تبقى من كتاب البيذق مع قطع أخرى بعنوان أخبار المهدي وابتداء دولة الموحدين. وعلى الرغم من مشاركة البيذق في الأحداث فإن هذا الجزء من كتابه لا يظهر أن الرجل أراد كتابة تاريخ للفترة التي شهدها، فهو أقرب إلى المذكرات التي وضعت لتسعف الذاكرة، فمعلوماته قليلة ومقتضبة. هذا فضلاً عن أن بعض ما يورده أسطوري الطابع.

وأما الكتاب الثاني فقد صنفه أبو مروان عبد الملك بن صاحب الصلاة (ت 594 / 1198) وهو: المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين... (1).

وقد كان الكتاب في أصله ثلاثة أجزاء تبدأ من فترة المهدي وتنتهي بوفاة المؤلف. والموجود منه الجزء الثاني، وأحداؤه امتدت عبر سنتي 554 و 569 هـ. فخرمنا أخبار طور التأسيس والفترة التي عاصرها المؤلف وشارك في أحداثها.

وطريقة ابن صاحب الصلاة حولية. وأسلوبه يغلب عليه السجع ولكنه لم يؤثر على دقته في إيراد الخبر. فمصادره هي الروايات المباشرة والمشاهدة والوثائق التي أورد منها نصوصاً كثيرة. فجاء كتابه زاخراً بالمعلومات عن النظم السياسية والإدارية والدينية والعسكرية والمالية ولهذا كان عليه الاعتماد الأكبر في هذه الدراسة.

ويسمى سراج المرء أن يعتبر الكتب التي صنف عن الدولة الحفصية ضمن هذه المجموعة لأن الدولة الحفصية في تونس ما هي إلا امتداد للدولة الموحدية في المغرب الأقصى. وقد عالجت هذه الكتب الفترة الموحدية كمقدمة للدولة الحفصية. فأخبارها - والحالة هذه - مختصرة واستمدتها من كتب سابقة. ومن هذا النوع تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم

(1) حقق هذا الكتاب عبد الهادي التازي وطبع في بيروت سنة 1964 م وسنشير إليه بـ المن بالإمامة غير أن هذه الطبعة الوحيدة مليئة بالأخطاء.

للؤلؤي الزركشي (ت 887 / 1482). وعلى الرغم من أنه يعتمد على مصادر أغلبها بين أيدينا⁽¹⁾ إلا أنه اعتمد على كتاب قد فقد لابن نخيل⁽²⁾ الذي عمل كاتباً للحفصيين في بداية أمرهم. وعن طريق رواية ابن نخيل زدنا الزركشي بمعلومات عن سلطات الولاة والمتنفذين.

ولئن فقد جل التراث الذي كتب في ظل الموحدين موقوفاً على دولتهم فقد حفظت كثير من مروياته في كتب التاريخ العام، وأهمها ستة كتب تعالج تاريخ المغرب الكبير.

أولاً: المعجب في تلخيص أخبار المغرب لأبي محمد عبد الواحد بن علي المراكشي (ألف 621 / 1224). وقد صنف كتابه بالمشرق مما يسر له قدراً كبيراً من الحيدة في رواياته⁽³⁾ ونقدها⁽⁴⁾. واتصالاته برجال الدولة الموحدية جعلت كتابه يفيض بالأخبار السياسية. غير أن أهمية المراكشي تظهر في اهتمامه الواسع بالنظم الموحدية، فقد حرص على ذكر وزراء وكتاب وقضاة وولاة كل خليفة، وفصل القول في تنظيمات الموحدين وقبائلهم. وذيل كتابه بمعلومات جغرافية هامة ساعدت كثيراً في تقدير الحياة الاقتصادية. كما وأنه الكاتب الوحيد الذي أورد إحصاء للولايات الموحدية في المغرب الكبير. غير أن عيب المراكشي أنه كتب من ذاكرته وبعيداً عن مصادر مروياته، فجاءت بعض رواياته مرتبكة وضعيفة ومختلفة عن المصادر المعاصرة الأخرى، لا سيما في ذكر تواريخ الأحداث⁽⁵⁾. وكيفما كان الأمر فقد وفر المراكشي رواية ثانية عن الدولة الموحدية إذا ما اعتبرنا روايتا

(1) راجع الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية (تحقيق محمد ماضور تونس، المكتبة العتيقة، 1966 م) ص 4 وسنشير إلى هذا المصدر بتاريخ الدولتين.

(2) أنظر المصدر ذاته ص 3.

(3) إن المراكشي لا يعظم ابن تومرت ولا ينتقص من قدر المرابطين: راجع المعجب في تلخيص أخبار المغرب (ضبط محمد سعيد العريان ومحمد العلمي، القاهرة، مطبعة الاستقامة، 1941 م) ص 178، 185 وسنشير إلى هذا المصدر بـ المعجب.

(4) أنظر المعجب ص 178، 188 وما بعدها.

(5) قابل بين المعجب ص 236، 245، والمن بالإمامة ص 79، 80.

البندق وابن صاحب الصلاة تمثلان واية مؤرخي «البلاط» الموحد.

ثانياً: نظم الجمان لأبي علي الحسين بن القطان الكتامي (القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي). ويرجح محققه أن أصل الكتاب سبعة أجزاء تتناول تاريخ المغرب منذ الفتح الإسلامي⁽¹⁾. وقد ضاع أكثره والموجود المنشور هو جزء من الجزء السادس وفيه أخبار سنة 500-533 هـ. وقد رتبته على السنين. والراجح أنه كتبه للخليفة المرتضى الموحد وربما كان ابن القطان أحد كتّاب ذلك الخليفة⁽²⁾. وقد اعتمد على روايات مؤرخين ضاعت كتبهم مثل اليسع وابن الراعي وابن الوارق وابن صاحب الصلاة. وأورد كثيراً من الوثائق خاصة رسالة عبد المؤمن التي بعثها عام 543 / 1147 إلى الولايات شارحاً طريقة العمل في كافة نظم الدولة. وسيجد القارئ أن هذه الرسالة التي ينفرد ابن القطان بذكرها كانت الأساس في هذه الدراسة عن أوليات النظم الموحدية. وإلى جانب هذا فقد ذكر ابن القطان معلومات واسعة عن تنظيمات الموحديين الحزبية.

ثالثاً: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لأبي عبد الله محمد بن عذاري المراكشي المتوفى في أواخر القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي. وأرخ ابن عذاري تاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى سنة 667 هـ. وقد كان يظن إلى وقت قريب أن فترتي المرابطين والموحدين من هذا الكتاب قد فقدت، حتى عثر هوسي على فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحديين ونشرها⁽³⁾ ثم وجد القسم الموحد ونشره كتاباً قائماً بذاته⁽⁴⁾. وقد

(1) كتاب نظم الجمان (تحقيق محمود علي مكي، تطوان، المطبعة المهدية، لا. ت. ص غ من المقدمة وسنشير إلى هذا المصدر بـ نظم الجمان).

(2) راجع مقدمة لمحقق نظم الجمان.

(3) نشر هوسي هذا الجزء في مجلة Hesperis ثم جعلته دار الثقافة الجزء الرابع من البيان المغرب، وقد ذيله الدكتور إحسان عباس بتعليقات وافية. وسنذكر طبعة دار الثقافة دائماً هكذا: البيان المغرب (ط. دار الثقافة).

(4) حقق هذا الجزء هوسي بمشاركة محمد بن تاويت ومحمد إبراهيم الكتاني (تطوان، =

اعتمد ابن عذاري على مؤلفات من سبقوه وأكثرها مفقود. كما اعتمد على الروايات السماعية والمشاهدة في الجزء الأخير من حياة الدولة الموحدية. فإذا اعتبرنا نظم الجمان مكملاً للنقص الأول في المن بالإمامة فحري بنا أن نعد البيان المغرب متمماً لكتاب المن بالإمامة. وشفيعنا في هذا الرأي نقوله الكثيرة عن ابن صاحب الصلاة، وإيراده لكثير من وثائق الموحديين ومكاتباتهم، ووفرة المعلومات السياسية والإدارية والاقتصادية والعسكرية فيه. فهو أوفى مصدر لدينا.

رابعاً: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. وقد نشر منسوباً إلى أبي الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي (ت 726 / 1325). غير أن محمد الفاسي يرى أن الروض روضان: روض ابن أبي زرع وهو كبيم مفقود وروض أبي محمد صالح بن عبد الحليم الغرناطي (ت 708 / 1308 أو 710 / 1310). وهو مختصر وهو المتداول بين أيدينا وقد نسب خطأ إلى ابن أبي زرع⁽¹⁾.

والكتاب يسرد أخبار المغرب منذ دولة الأدارسة إلى أيام المؤلف. وطريقة المؤلف فيه أن يعرض أخبار حكام كل دولة ثم يعقب ذلك بأهم الأخبار في عهدها. وأهميته تظهر فيما أولاه من عناية للأحوال الاقتصادية والعمرانية. غير أن كثيراً من أخباره السياسية مضطربة وغامضة وتختلف عن المصادر التي عاصرت الموحديين⁽²⁾.

= سلسلة معهد مولاي الحسن، 1960 م) وسنشير إلى هذا الجزء دائماً بـ البيان المغرب ج ٣.

(1) انظر الفاسي «المؤرخان: ابن أبي زرع وابن عبد الحليم» مجلة تطوان، 1960 م، العدد الخامس، ص 154-156.

(2) والكتاب بصورته المطبوعة يحتاج إلى إعادة تحقيق وطباعة نسبة لكثرة الأخطاء في القراءة ورداءة الطبع.

خامساً: مفاخر البربر صنفه مؤلف مجهول سنة 712 / 1312 والموجود منه نبذ قصيرة⁽¹⁾ وفائدته في موضوع هذه الدراسة كانت محدودة.

سادساً: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية⁽²⁾ لمؤلف مجهول صنفه سنة 783 / 1381، وقد عالج تاريخ المغرب منذ تأسيس مراكش إلى سنة 783 هـ. وعلى الرغم من أن أخباره مختصرة إلا أنه ذكر عصر عبد المؤمن في شيء من التفصيل. وقد أورد معلومات هامة عن تنظيمات الموحدين الحزبية والإدارية وهو المصدر الوحيد الذي فصل طريقة القتال عند الموحدين.

ورجعنا إلى كتابين مغربيين من كتب التاريخ الإسلامي العام: أولاً كتاب أعمال الإعلام في من بويج قبل الاحتلال من ملوك الإسلام للسان الدين محمد ابن عبد الله بن الخطيب (ت 776 / 1375). وقد نشر ليفي برونفسال قسم إسبانيا بعنوان: تاريخ إسبانيا الإسلامية، وقد نشر أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني قسم المغرب بعنوان: «تاريخ المغرب في العصر الوسيط». ففي القسم الأندلسي أوجز ابن الخطيب تاريخ الموحدين إيجازاً شديداً ووعد أن يوفيه حقه فيما بعد⁽³⁾. وأما في القسم المغربي فلم يتجاوز الكتاب بداية خلافة عبد المؤمن. ومن هنا فلم تكن الفائدة من هذا المصدر إلا قليلة في تحقيق بعض الأخبار المتعلقة برجالات الأندلس الذين عملوا في نظم الموحدين في بداية الدولة.

ثانياً: العبر وديوان المبتدأ والخبر لأبي زيد عبد الرحمن بن خلدون (ت 808 / 1406) فالمقدمة التي تشكل الجزء الأول من هذا الكتاب⁽⁴⁾ أولت النظم الموحدية عناية خاصة إلا أن بعض النتائج التي توصل إليها ابن خلدون وجدنا ما

(1) نشر هذا الكتاب ليفي برونفسال بعنوان: نبذ تاريخية في أخبار البربر في العصور الوسطى منتخبة من مفاخر البربر (رباط الفتح، المطبعة الجديدة، 1934 م). وسنشير إليه بمفاخر البربر.

(2) طبعة علوش (رباط الفتح، 1936 م).

(3) أنظر تاريخ إسبانيا الإسلامية (تحقيق ليفي برونفسال، بيروت، دار المكشوف، 1956) ص 265 وسنشير إلى هذا المصدر بأعمال الأعلام (ليفى).

(4) رجعنا إلى طبعة دار الكتاب اللبناني (بيروت 1956 - 1959) وسنشير إليها بالعبر.

يخالفها في المصادر الأخرى. وتعرض ابن خلدون لتاريخ الموحدين بشكل تفصيلي وافٍ نسبياً في تاريخه العام وذكر معلومات قيمة عن قبائل الموحدين التي كان لها دور كبير في أعمال الدولة الموحدية. كما وردت فيه إشارات هامة عن الولاة والقادة العسكريين.

وأخيراً لم أجد شيئاً يتعلق بالنظم الموحدية في الكتب التي اختصت بدولة جاءت بعد الموحدين فلم أرجع إليها إلا في تحقيق خبر يتعلق بالقضية التي تؤرخ لها. ومن هذا النوع اللوحة البدرية في الدولة النصرانية⁽¹⁾ لابن الخطيب والذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية⁽²⁾ لمؤلف مجهول، والمؤنس في أخبار إفريقية وتونس⁽³⁾ لعبد الله محمد بن أبي القاسم بن أبي دينار الرعيني (ت 1110 / 1698).

أما كتب المشاركة التاريخية فإنها قلما تتعرض لأخبار المغرب. غير أن أبا الحسن علي بن محمد بن الأثير الشيباني (ت 630 / 1233) قد سرد أخباراً غير يسيرة عن الموحدين في كتابه الكامل في التاريخ⁽⁴⁾. فأورد معلومات عن تنظيمات الموحدين الحزبية ونظمهم السياسية، ومن الملاحظ أن ابن الأثير كان كلفاً بأخبار إفريقية (تونس)، فأفاد كثيراً عن أخبار هذه الولاية الموحدية.

ومن الكتب المشرقية التي اختصت بدولة الموحدين أفدنا من الوثائق التي أوردتها أبو القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة (ت 665 / 1267) في مؤلفه الروضتين في أخبار الدولتين⁽⁵⁾ عن سفارة ابن منقذ من قبل صلاح الدين الأيوبي إلى المنصور الموحدي عن طريقة استقبال رسل الدول الأجنبية كما أمد بمعلومات

(1) طبعة محب الدين الخطيب (القاهرة، المطبعة السلفية، 1347 هـ) وسنشير إليه باللمحة البدرية.

(2) طبعة الجزائر، 1920 م وسنشير إليه بالذخيرة السنية.

(3) طبعة مطبعة الدولة التونسية، 1286 هـ وسنشير إليه بالمؤنس.

(4) طبعة دار صادر ودار بيروت (بيروت، 1967 م) وسنشير إليه بالكامل.

(5) طبعة مطبعة وادي النيل (القاهرة، 1287 - 1288 هـ) وسنشير إليه بالروضتين.

قيمة عن دخول الأغزاز المصريين إلى المغرب. وقد نقل معلوماته هذه جمال الدين محمد بن سالم بن واصل (ت 697 / 1298) في مفرج الكروب في أخبار بني أيوب⁽¹⁾.

التراجم:

لقد اتبعت كتب التراجم العامة منهجاً واحداً، فهي تذكر اسم المترجم له كاملاً وكنيته ونسبته وبلده الذي ولد فيه أو الذي منه أصله والبلد الذي نزل به إن رحل إلى آخر ثم تبين شيوخه وعلومه ومن عنه أخذ وتختتم الترجمة بتاريخ الوفاة والمولد والمكان ما تيسر ذلك. وعليه فإن قيمتها في هذه الدراسة قليلة. ومن هذا القبيل التكملة لكتاب الصلة⁽²⁾ لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي ابن الأبار (ت 658 / 1260) وصلته الصلة لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير (ت 708 / 1308). غير أن بعض المصنفين كان يستطر فيورد أخباراً تاريخية هامة مثل ابن الأبار في الحلة السيرة وأبي عبد الله محمد بن عبد الملك المراكشي (ت 703 / 1303) في الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة⁽³⁾ وأبي العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت 1041 / 1631) في نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب⁽⁴⁾. وفي استطراداتهم ذكروا أخباراً هامة تتعلق بالنظم الموحدية، لم نظفر بها في كتب التاريخ العام. مثل الرسالة التي أوردها ابن عبد الملك والتي تؤكد أن لقب قاضي الجماعة أطلقه

(1) طبعة المطبعة الأميرية (القاهرة، 1953 - 1957 م) وسنشير إليه بـ مفرج الكروب.

(2) طبعة كوديرا (مدريد: 1888 - 1889 م) وسنشير إليه بـ التكملة.

(3) رجعنا إلى الجزئين اللذين حققهما إحسان عباس (بيروت، دار الثقافة، 1964 - 1965 م). وسنشير إلى هذا المصدر بـ الذيل والتكملة.

(4) رجعنا إلى طبعتين مختلفتين من نفح الطيب هما طبعة أحمد فريد الرفاعي (القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، لا. ت) وأشرفنا إليها بـ نفح (الرفاعي) وطبعة محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، 1949 م) وأشرفنا إليها بـ نفح (محي الدين).

الموحدون على قاضي العاصمة. ومثل المعلومات السياسية والإدارية والمالية التي أوردها المقري بنقله المطولة عن مصادر فقدت. فمن النوع الأول نقوله عن المغرب لابن سعيد المغربي ورسالة أبي يحيى ابن المعلم الطنجي في تفضيل المغرب على الأندلس. ومن النوع الثاني اقتباساته الطويلة عن رحلة تاج الدين بن حموية السرخسي المغربية التي قام بها في خلافة المنصور الموحي.

وأما كتب التراجم التي اختصت برجال مدينة نظير عنوان الدراية فيمن عرف من علماء المائة السابعة في بجاية⁽¹⁾ لأبي العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني (ت 714 / 1315) والإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب، أو نسب مثل كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب⁽²⁾ لمؤلف مجهول، أو طبقات المجتمع من أدباء مثل أعتاب الكتاب⁽³⁾ لابن الأبار والغصون الياقة في محاسن شعراء المائة السابعة⁽⁴⁾ وكتاب اختصار القدر المعلى في التاريخ المحلي⁽⁵⁾ لأبي الحسن بن علي بن موسى بن سعيد المغربي (ت 685 / 1286)، وفقهاء مثل الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب⁽⁶⁾ لإبراهيم بن علي بن فرحون (ت 799 / 1396) ونيل الابتهاج بتطريز الديباج⁽⁷⁾ لأحمد بابا التنبكتي (ت 963 / 1532) ومتصوفة نظير التشوف إلى رجال التصوف⁽⁸⁾ ليوسف بن يحيى بن الزيات التادلي (ت 627 / 1230) أو كتب برامج مثل برنامج شيوخ الرعياني⁽⁹⁾ فإن كل

(1) طبعة المطبعة الثعالبية (الجزائر، 1328 هـ) وأشرفنا إليها بـ عنوان الدراية.

(2) نشره ليفي برونسسال ضمن كتاب البيدق: أخبار المهدي وابتداء دولة الموحدين (باريز، 1928 م) وسنشير إليه بـ أخبار المهدي أيضاً.

(3) طبعة صالح الأشر (دمشق: 1961 م).

(4) طبعة إبراهيم الأبياري (القاهرة، دار المعارف، 1954 م) وسنشير إليه بـ الغصون الياقة.

(5) طبعة إبراهيم الأبياري (القاهرة، 1959 م) وسنشير إليه بـ اختصار القدر.

(6) طبعة مطبعة المعاهدة (القاهرة، 1351 هـ) وسنشير إليه بـ الديباج.

(7) الطبعة التي رجعنا إليها من جاشية الديباج وأشرفنا إلى المصدر بـ نيل الابتهاج.

(8) طبعة أدولف فور (الرباط 1962 م) وسنشير إليه بـ التشوف.

(9) حققه إبراهيم شيوخ (دمشق، 1962 م) وسنشير إليه بـ برنامج الرعياني.

العمرائية. كما حرص بوجه خاص على ذكر أحوال المغرب الاقتصادية.

وجاءت الفائدة في الكتب المتأخرة من رحلة أبي عبد الله محمد بن محمد ابن أحمد التيجاني (ت 717 / 1317)⁽¹⁾ غير أن أخباره كانت مقتصرة على منطقة إفريقية (تونس). ولكن الاستفادة الكبرى كانت من الروض المعطار⁽²⁾ لأبي عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري الذي صنف كتابه سنة 866 / 1462 فقد أشار إلى أثر الصراع بين شيوخ الموحدين على مصير الدولة. كما أنه المصدر الوحيد الذي يزود بمعلومات وافية نسبياً عن الأسطول الموحي لا سيما عدته وسفنه.

الموسوعات والنظم:

رجعنا إلى كتابين من كتب الموسوعات: الأول لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت 723 / 1337): وهو نهاية الأرب في فنون الأدب. واستفدنا من القسم التاريخي المتعلق بالمغرب⁽³⁾. ويبدو أن ما جاء فيه عن الموحدين ما هو إلا اقتباساً عن ابن الأثير وعبد الواحد المراكشي وابن خلكان، والكتاب الثاني لشهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي (ت 821 / 1418) وهو صبح الأعشى في كتابة الإنشا⁽⁴⁾، فقد أورد عدداً من الرسائل الموحدية، كما شرح طريقة الموحدين في كتابه رسائلهم.

وأما كتب النظم فقد أفادت فائدة محسوسة، فأفاد كتاب الأحكام السلطانية والولايات الدينية⁽⁵⁾ لعلي بن محمد بن حبيب الماوردي (ت 450 / 1058) إذ

(1) حقق هذه الرحلة حسن حسني عبد الوهاب ونشرها بعنوان رحلة التيجاني وقد أشرنا إليها بـ الرحلة.

(2) نشر ليفي برونسفال وصف الأندلس بعنوان: صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار (القاهرة، 1937 م) وأشرنا إليه في هذه الدراسة بـ الروض المعطار.

(3) نشر هذا القسم جيسارو ريميرو (غرناदा، 1919 م).

(4) طبعة دار الكتب المصرية، 1913 — 1919 م.

(5) طبعة مطبعة مصطفى البابي الحلبي (القاهرة، 1966 م).

هذه المصنفات لم تفد إلا في فصلي الإدارة والخطط الدينية لأنها ترجمت لرجال فيهم من تولوا وظائف في تلك النظم.

غير أن كتاب التشوف لابن الزيات كان خيبة أمل كبرى. فعلى الرغم من أن ابن الزيات عني بالترجمة لرجال عاشوا في الفترة الموحدية، إلا أن معلوماته كانت عن كرامات الأولياء وقصص المتوصفة. ولم أظفر فيه إلا على إشارة واحدة تتعلق بسلطات قاضي الجماعة.

وحري بنا أن ننوه بأحد هذه الكتب، وهو الإنساب في معرفة الأصحاب، فقد أمدنا المؤلف المجهول بمعلومات ضافية عن تنظيمات الموحدين لم نجدها في مصدر غيره.

وأما الفائدة العظمى من كتب التراجم المشرقية فقد كانت من وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان⁽¹⁾ لأبي العباس أحمد بن خلكان (ت 681 / 1282)، وابن خلكان كان معاصراً للدولة الموحدية، فترجم لخلفائها تراجم طويلة نسبياً مستفيداً من الكتب المشرقية والمغربية وروايات مباشرة عن الراحلين من المغرب إلى المشرق، فأفاد في النظم السياسية والعسكرية والمالية بكثير من الروايات.

الجغرافية والرحلات:

كان أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي (ت 562 / 1166) معاصراً لفترة تأسيس الدولة الموحدية، فأورد في نزته⁽²⁾ أخبار العرب الهلالية الذين أصبحوا فيما بعد عنصراً أساسياً في الجيش الموحي. ولكن المؤلف المجهول الذي كتب الاستبصار في عجائب الأمصار⁽³⁾ حوالي سنة 587 / 1191 وعمل في دواوين الموحدين فقد أمد بكثير من المعلومات عن إصلاحات الموحدين

(1) طبعة محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة، 1948 - 1949) وأشرنا إلى هذا المصدر بـ وفيات الأعيان.

(2) نظرنا فيما نشر بيريس عن وصف إفريقية الشمالية والصحراوية (ط. الجزائر، 1957 م).

(3) حقق هذا الكتاب سعد زغلول عبد الحميد (ط. الإسكندرية، 58) وأشرنا إليه بـ الاستبصار.